المنتقى من كتاب مفتاح دار السعادة
ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم

جمع
فهد بن عبدالعزيز بن عبدالله الشويرخ

حقوق الطبع والنشر لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين, نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين...أما بعد: فمن مصنفات العلامة ابن القيم رحمه الله كتابه الموسوم بـ " مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة " وهو كتاب اسمه موافق لمسماه, فيه الكثير من الفوائد, ومن رام أن يعرف فضل العلم المورث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرفه فليقرأ الكتاب فقد استقصى في ذكر فضائل العلم وفوائده.

وقد اشتمل الكتاب على الكثير من المباحث الفرعية التي فيها فوائد متناثرة في مختلف الفنون, وقد يسّر الله الكريم لي فانتقيتُ شيئاً منها, أسأل الله أن ينفع بها, ويبارك فيها.

من أقوى أسباب الشكر أن يرى العبد غيره في ضدِّ حاله من الكمال والفلاح:

سبحانه اقتضت حكمته وحمدهُ أن فاوت بين عباده أعظم تفاوتٍ وأبينه, ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضلهُ, ويعرف أنه حُبِي بالإنعام, وخصّ دون غيره بالإكرام. ولو تساووا جميعهم في النعمة والعافية لم يعرف صاحبُ النعمة قدرها, ولم يبذل شكرها إذ لا يرى أحداً إلا في مثل حاله.

ومن أقوى أسباب شكر وأعظمها استخراجاً له من العبد: أن يرى غيره في ضدِّ حاله الذي هو عليها من الكمال والفلاح.

كتاب الله فيه الشفاء من كل داء, والهداية إلى كل خير:

الحمد لله الذي جعل كتابه كافياً من كلِّ ما سواه, شافياً من كلِّ داء, هادياً إلى كل خير,..فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيى الأرضُ بالماء, وتُحرقُ خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تُحرقُ النارُ ما يلقى فيها, وتميز زَبَدَها من زُبَدِها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحو منه.

القلب السليم:

القلب السليم الذي لا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله به, هو القلب الذي..قد سلَّم لربه, وسلَّم لأمره, ولم تبق فيه منازعة لأمره, ولا معارضة لخبره, فهو..لا يريد إلا الله, ولا يفعل إلا ما أمره الله, فالله وحده غايته وأمره وشرعهُ ووسيلته وطريقته, لا تعترضه شبه تحول بينه وبين تصديق خبره, لكن لا تمر عليه إلا وهي مُجتازة, تعلم أنه لا قرار لها فيه, ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه.

ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك, وسليم من البدع, وسليم من الغي, وسليم من الباطل, وكلُّ الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك ينتظمها.

نفي الخوف والحزن عن متَّبع الهدى:

قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٣٨] فالله سبحانه جعل اتباع هداه وعهده الذي عهده إلى آدم سبباً ومقتضياً لعدم الخوف والحزن,...وهذا الجزاء ثابت بثبوت الشرط, مُنتفٍ بانتفائه.

ونفي الخوف والحزن عن متبع الهدى نفي لجميع أنواع الشرور, فإن المكروه الذي ينزلُ بالعبد متى علم بحصوله فهو خائف منه أن يقع به, وإذا وقع به فهو حزين على ما أصابه منه, فهو دائماً في خوفٍ وحزن, فكل خائف حزين, وكل حزين خائف, وكل من الخوف والحزن يكون على فوات المحبوب وحصول المكروه.

ومتابعة هدى الله التي رتب عليها هذه الأمور هي:

تصديق خبره من غير اعتراض شبهةٍ تقدحُ في تصديقه.

وامتثال أمره من غير اعتراض شهوةٍ تمنع امتثاله.

وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان, وهما: تصديق الخبر, وطاعة الأمر.

ويتبعهما أمران آخران, وهما: نفي شبهات الباطل الواردة عليه, المانعة من كمال التصديق وأن لا يخمش بها وجه تصديقه.

ودفع شهوات الغي الواردة عليه, المانعة من كمال الامتثال.

فهنا أربعة أمور: أحدها: تصديق الخبر.

الثاني: بذل الاجتهاد في ردِّ الشبهات التي تُوحيها شياطين الجن والإنس في معارضته

الثالث: طاعة الأمر.

الرابع: مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحولُ بين العبد وبين كمال الطاعة.

(٥)-

الحياة الطيبة:

يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة الطيبة حيث يظنونها التنعُّم بأنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح, أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء, والتفنن بأنواع الشهوات, ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم, بل قد يكون حظُّ كثير من البهائم منها أكثر من حظَّ الإنسان, فمن لم يكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السِّباعُ والدوابُّ والأنعام فذلك ممن ينادي من بعيد.

ولكن أين هذه اللذةُ من اللذة بأمرٍ إذا خالط بشاشته القلوب سلا عن الأبناء والنساء, والأوطان, والأموال, والإخوان, والمساكن, ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً, وعرض نفسه أنواع المكاره والمشاق, وهو متحمل لهذا منشرح الصدر به, حتى إن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره وهو يقول: فزتُ ربِّ الكعبة.

سبب استغفار الحيوانات للعالم:

قوله صلى الله عليه وسلم: (إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء) قيل: إن (من في السموات ومن في الأرض) المستغفرين للعالم عام في الحيوانات, ناطقها وبهيمها, طيرها وغيره, ويؤكد هذا قوله: (حتى الحيتان في الماء, وحتى النملة في جحرها)

فقيل: سبب هذا الاستغفار أن العالم يعلّم الخلق مراعاة هذه الحيوانات, ويعرفهم ما يحلُّ منها وما يحرُم, ويعرّفهم كيفية تناولها, واستخدامها, وركوبها, والانتفاع بها, وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وأرفقها بالحيوان, والعلمُ أشفق الناس على الحيوان, وأقومهم ببيان ما خُلِقَ له.

-(٦)

تشبيه العلماء بالنجوم:

أما تشبيه العلماء بالنجوم, فلأن النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر, وكذلك العلماء, والنجوم زينة للسماء, وكذلك العلماء زينة للأرض.

وهي رجوم للشياطين حائلة بينهم وبين استراق السمع, لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحي الوارد إلى الرسل من الله على أيدي ملائكته, وكذلك العلماء رجوم لشياطين الإنس الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً, فالعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين, ولولاهم لطُمست معالم الدين بتلبيس المضلين, ولكن الله سبحانه أقامهم حُراساً وحفظةً لدينه, ورجوماً لأعدائه وأعداء رسله.

الحذر من رفيق ووزير السوء:

قيل: إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاورن هامان وزيره, فقال: بينا أنت إله تُعبدُ تصيرُ عبداً تعبُد غيرِك, فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المُحال.

أفضل الأعمال بعد الفرائض طلبُ العلم:

كثير من الأئمة صرَّحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلبُ العلم.

فقال الشافعي: ليس شيء بعد الفرائض أفضلَ من طلب العلم.

وحكاه الحنفية عن أبي حنيفة.وأما الإمامُ أحمد فحُكي عنه ثلاث روايات:

إحداهن: أنه العلم, والرواية الثانية: صلاة التطوع, والرواية الثالثة: أنه الجهاد.

وأما مالك فقال ابن القاسم: سمعت مالكاً يقول: إن أقواماً ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم, فخرجوا على أئمة محمد صلى الله عليه وسلم بأسيافهم, ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك.

(٧)-

الفقيه:

قال الحسن البصري: الفقيه: الزاهد الراغب في الآخرة, البصير بدينه, المداوم على عبادة ربه, الذي لا يهمز من فوقه, ولا يسخر ممن دونه, ولا يبتغي على علم علَّمه الله تعالى أجراً, وقال بعض السلف: إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله, ولم يؤمنهم من مكر الله, ولم يدع القرآن رغبةً عنه إلى ما سواه.

الهداية أعظم نعمة لله على العبد:

الهدايةُ هي العلم بالحقِّ مع قصده وإيثاره على غيره, فالمهتدي هو العالم بالحقِّ المريدُ له, وهي أعظم نعمة لله على العبد, ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يومٍ وليلةٍ في صلواتنا الخمس, فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضى الله في كل حركة ظاهرةٍ وباطنةٍ, فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق فيجعل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله.

ومعلوم أن ما يجهله العبدُ أضعاف أضعاف ما يعلمُه, وأن كلَّ ما يعلمُه أنه حق لا تطاوعه نفسُه على إرادته, ولو أراده لعجز عن كثير منه, فهو مضطر كل وقتٍ إلى هدايةٍ تتعلق بالماضي وبالحال وبالمستقبل.

أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه, وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستديمه, أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره, ويعزم على أن لا يعود.

وأما الهداية في الحال, فهي مطلوبة منه, فإنه ابن وقته, فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال, هل هو صواب أم خطأ ؟

وأما المستقبل فحاجته فيه إلى الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق.

-(٨)

أنواع السعادات التي تؤثرها النفوس:

أنواع السعادات التي تؤثرها النفوس ثلاثة:

سعادة خارجية عن ذات الإنسان: بل هي مستعارة له من غيره, تزولُ باسترداد العارية, وهي سعادةُ المال والجاه وتوابعهما, فبينا المرءُ بها سعيد ملحوظ بالعناية مرموق بالأبصار, إذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتدٍ بقاعٍ يُشجِّجُ رأسه بالفهر واجي.

فالسعادة والفرحُ بهذه كفرح الأقرع بجُمة ابن عمه, والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزته, فإذا جاوز بصرُك كسوته فليس وراء عبادان قرية.

ويحكى عن بعض العلماء أنه ركب مع تجار في مركب, فانكسرت بهم السفينة, فأصبحوا بعد عزِّ الغنى في ذلِّ الفقر, ووصل العالم إلى البلد, فأُكرم وقُصِدَ بأنواع التُّحف والكرامات, فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا له: هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة ؟ فقال: نعم, تقولون لهم: إذا اتخذتم مالاً فاتخذوا مالاً لا يغرقُ إذا انكسرت السفينة.

واجتمع رجل ذو هيئةٍ حسنةٍ ولباس جميل..برجل عالم, فجسَّ المخاضة فلم ير شيئاً, فقالوا: كيف رأيته ؟ فقال: رأيت داراً حسنةً مزخرفة ولكن ليس بها ساكن.

السعادة الثانية: سعادة في جسمه وبدنه, كصحته واعتدال مزاجه, وتناسُب أعضائه, وحُسن تركيبه, وصفاء لونه, وقوة أعصابه.

فهذه ألصقُ به من الأولى, ولكن في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته, فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه, كما قيل:

يا خادم الجسم كم تشقي بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

السعادة الثالثة: هي السعادة الحقيقية, وهي سعادة نفسية روحية قلبية, وهي سعادةُ العلم النافع وثمرتُه, فإنها هي الباقيةُ على تقلُّب الأحوال, والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره, وفي دُوره الثلاثة – أعنى دار الدنيا, ودار البرزخ, ودار القرار – وبها يترقى في معارج الفضل ودرجات الكمال.

أما الأولى, فإنما تصحبه في البقعة التي فيها مالُه وجاهُه.

والثانية, فعرضة للزوال والتبدل بِنكس الخلق والردِّ إلى الضَّعف.

فلا سعادة في الحقيقة إلا هذه الثالثة, التي كلَّما طال عليها الأمدُ ازدادت قوةً وعلوّاً, وإذا عُدِمَ المالُ والجاهُ فهي مالُ العبد وجاهُه, وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة البدن إذا انقطعت السعادتان الأوليتان.

وهذه السعادة لا يعرفُ قدرها ويبعثُ على طلبها إلا العلمُ بها, فعادت السعادةُ كلُّها إلى العلم وما يقتضيه, والله يوفق من يشاء, لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع

وإنما رغب أكثرُ الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها لوعورة طريقها, ومرارة مباديها, وتعب تحصيلها, وأنها لا تنالُ إلا على جسر من التعب, فإنها لا تُحصَّلُ إلا بالجدَّ المحض, بخلاف الأوليتين, فإنهما حظّ قد يحوزه غيرُ طالبه, وبخت قد يحرزُه غيرُ جالبه من ميراثٍ أو هبةٍ أو غير ذلك, وأمَّا سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذلُ الوسع, وصدقُ الطلب وصحة النية.

ومن طمحت همته إلى الأمور العلية, فواجب عليه أن يسدَّ على همته الطُّرق الدنيَّة.

وهذه السعادةُ وإن كانت في ابتدائها لا تنفكُ عن ضرب من المشقة,...فإنها متى أُكرهت النفس عليها, وسيقت طائعةً وكارهةً إليها, وصبرت على لأوائها وشدَّتها, أفضت منها إلى رياض مُؤنقة, ومقاعد صدق ومقام كريم, تجد كل لذَّة دونها.

-(١٠)

فالمكارم منُوطة بالمكاره, والسعادةُ لا يعبر إليها على جسر المشقة, ولا تقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد.

قال مسلم في صحيحه: قال يحيى بن أبي كثير: لا يُنالُ العلمُ براحة الجسم.

وقد قيل: من طلب الراحة ترك الراحة.

ولولا جهلُ الأكثرين بحلاوة هذه اللذة وعِظَم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف, ولكن حُفَّت بحجابٍ من المكاره, وحُجبوا عنها بحجابٍ من الجهل, ليختصَّ اللهُ بها من يشاء من عباده, والله ذو الفضل العظيم.

من نسي ربَّه أنساه ذاته ونفسه:

من نسي ربَّه أنساه ذاته ونفسه, فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه, بل نسي ما به صلاحُه وفلاحُه في معاشه ومعاده, فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائمة, بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه, لبقائها على هداها التام الذي أعطاها إياه خالقها, وأما هذا فخرج عن فطرته التي خُلِقَ عليها, فنسي ربَّه, فأنساه نفسه وصفاتها, وما تكمل به وتزكو به وتسعدُ به في معاشها ومعادها.

حوار بين جماعة من النصارى:

يحكى أنَّ جماعة من النصارى تحدثوا بينهم, فقال قائل منهم: ما أقلَّ عقول المسلمين! يزعمون أن نبيَّهم كان راعي الغنم, فكيف يصلح راعي الغنم للنبوة ؟! فقال له آخرُ من بينهم أمَّا هم فوالله أعقلُ منَّا فإن الله بحكمته سيترعى النبي الحيوان البهيم, فإذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان الناطق, حكمة من الله وتدريجاً لعبده, ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة, يأكلُ ويشربُ ويبول ويبكي, فقلنا: هذا إلهنا الذي خلق السموات والأرض ! فأمسك القوم عنه.

من رحمة الله وبره بعباده كسرهم بأنواع المصائب والمحن لينالوا رضاءه ومحبته:

ومن تدبر حكمته سبحانه, ولطفه وبرَّه بعباده وأحبابه, في كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار, كما يكسر العبد بالذنب ويُذلُّه به ثم يجبرُه بتوبته عليه ومغفرته له, وكما يكسره بأنواع المصائب والمحن ثم يجبره بالعافية والنعمة انفتح له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبته, وعَلِمَ أنه أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها, وأن ذلك الكسر هو نفس رحمته به وبره ولطفه, وهو أعلم بمصلحة عبده منه, ولكن العبد لضعف بصيرته ومعرفته بأسماء ربه وصفاته لا يكاد يشعر بذلك, ولا يُنالُ رضا المحبوب وقربه والابتهاج والفرح بالدنو منه والزلفى لديه إلا على جسر من الذل والمسكنة, وعلى هذا قام أمرُ المحبة, فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك.

العقل:

مدح الله سبحانه العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه, وذمَّ من لا عقل له, وأخبر أنهم النار الذين لا سمع لهم ولا عقل.

فهو آلةُ كلِّ علم وميزانُه الذي يُعرفُ به صحيحه من سقيمه وراجحُه من مرجوحه, والمرآة التي يُعرف بها الحسن والقبيح.

والعقل عقلان:

عقل غزيري, وهو أبُ العلم ومربيه ومُثمرة.

وعقل مكتسب مستفاد, وهو ولد العلم وثمرته ونتيجتُه.

فإذا اجتمعا في العبد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء, واستقام له أمرُه, وأقبلت عليه جيوشُ السعادة من كل جانب, وإذا فقدهما فالحيوان البهيم أحسن حالاً منه, وإذا انفردا نقص الرجلُ بنقصان أحدهما.

أمراض القلب ودواؤها:

القلب يعترضهُ مرضان يتوارد عليه, إذا استحكما فيه كان هلاكه ومُوته, وهما: مرض الشهوات, ومرض الشبهات, وهذان أصلُ داء الخلق إلا من عافاه الله.

وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين في كتابه:

أما مرض الشبهات, وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب, ففي قوله تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة:١٠]

وأما مرض الشهوة, ففي قوله: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾]الأحزاب:٣٢] أي: لا تَلِنَّ بالكلام فيطمعَ الذي في قلبه فجور وزنا.

وللقلب أمراض أُخر من: الرياء, الكِبر, والعُجب, والحسد, والفخر, والخُيلاء, وحبِّ الرياسة والعلوِّ في الأرض.

هذه الأمراض كلُّها متولدة عن الجهل, ودواؤها العلم.

فأمراض القلوب أصعبُ من أمراض الأبدان, لأن غاية مرض البدن أن يُفضي بصاحبه إلى الموت, وأمَّا مرضُ القلب فيُفضي بصاحبه الشقاء الأبدي, ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم.

ولهذا سمى الله تعالى كتابه شفاءً لأمراض الصدور, قال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا النّاسُ قَد جاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدورِ وَهُدًى وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنينَ ﴾ [يونس:٥٧]

فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفُّس في الهواء, بل أعظم.

وبالجملة, فالعلم للقلب مثلث الماء للسَّمك إذا فقده مات.

مداخل الشيطان على الإنسان وما ينجيه منها:

الله سبحانه بحكمته سلَّط على العبد عدواً عالماً بطرق هلاكه وأسباب الشرِّ الذي يلقيه فيه, متفنناً فيها, خبيراً بها, حريصاً عليها, لا يُفترُ عنه يقظة ولا مناماً, ولا بدَّ له من واحدةٍ من ستٍّ ينالها منه:

أحدها: وهي غاية مراده منه أن يحُول بينه وبين العلم والإيمان, فيلقيه في الكفر, فإذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح.

فإن فاتته هذه وهُدي للإسلام حرصَ على تِلو الكفر, وهي البدعة, وهي أحبُّ إليه من المعصية, فإن المعصية يُتابُ منها والبدعةُ لا يُتابُ منها, لأن صاحبها يرى أنه على هدى.

فإن أعجزته ألقاه في الثالثة, وهي الكبائر.

فإن أعجزته ألقاه في اللمم, وهي الرابعة, وهي الصغائر.

فإن أعزته شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه, ليربح عليه الفضل الذي بينهما, وهي الخامسة.

فإن أعجزه ذلك صار إلى السادسة, وهي تسليط حزبه عليه يؤذونه ويشتمونه ويبهتونه ويرمونه بالعظائم, ليحزُنه ويشغل قلبه عن العلم والإرادة وسائر عمله.

فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الأمور, ولا بعدوه, ولا بما يحصنه منه؟ فإنه لا ينجو من عدوه إلا من عرفه وعرف طرقه التي يأتيه منها وجيشه الذي يستعين به عليه, وعرفَ مداخله ومخارجه, وكيفية محاربته, وبأيِّ شيءٍ يحاربه, وبماذا يداوى جراحته, وبأيِّ شيءٍ يستمدُّ القوة لقتاله ودفعه, وهذا كلُّه لا يحصل إلا بالعلم, فالجاهل في غفلةٍ وعمّى عن هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم.

ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة:

الموصوفون بقوله: ﴿ إن شرَّ الدواب عند الله الصُّمُّ البُكم الذين لا يعقلون ﴾ [الأنفال:٢٢] هذا الضرب شرُّ البريَّة, يضيِّقون الديار, ويُغلُون الأسعار.

عند أنفسهم أنهم يعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهو عن الآخرة هم غافلون

ويتعلمون, ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم.

ويتكلمون, ولكن بالجهل ينطقون.

ويؤمنون, ولكن بالجبت والطاغوت يؤمنون.

ويعبدون, ولكن يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم.

ويجادِلون, ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق.

ويتفكرون ويبيتون, ولكن ما لا يرضى من القول يبيتون.

ويدعون, ولكن مع الله إلهاً آخر يدعون.

ويذكرون, ولكن إذا ذكروا لا يذكُرون.

ويصلون, ولكنهم من المصلين الذين عن صلاتهم ساهون, الذين هم يراؤون, ويمنعون الماعون.

ويحكمون, ولكن حكم الجاهلية يبغون.

ويكتبون, ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم, ثم يقولون: هذا من عند الله, ليشتروا به ثمناً قليلاً, فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون.

ويقولون: إنما نحن مصلحون, ألا إنهم المفسدون ولكن لا يشعرون, وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس, قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ؟! ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون.....فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة.

ـ(١٥)

وجوه فضل العلم على المال:

فضلُ العلم على المال يُعلمُ من وجوه:

أحدها: أن العلم ميراثُ الأنبياء, والمال ميراثُ الملوك والأغنياء.

الثاني: أن العلم يحرسُ صاحبه, وصاحب المال يحرسُ ماله.

الثالث: أنَّ المال تُذهِبُه النفقات, والعلمُ يزكو على النفقة.

الرابع: أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله, والعلمُ يدخلُ معه قبره.

الخامس: أن العلم يحكم على المال, والمال لا يحكم على العلم.

السادس: أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبرِّ والفاجر, والعلمُ النافع لا يحصل إلا للمؤمن.

السابع: أن العالِمَ يحتاجُ إليه الملوكُ فمن دونهم, وصاحب المالُ إنما يحتاج إليه أهلُ العُدم والفاقة.

الثامن: أن النفسَ تشرفُ وتزكو بجمع العلم وتحصيله, وذلك من كمالها وشرفها, والمالُ لا يزكيها ولا يكملها ولا يزيدها صفة كمال, بل النفس تنقصُ وتشحُّ وتبخلُ بجمعه والحرص عليه, فحرصها على العلم عين كمالها, وحرصها على المال عين نقصها.

التاسع: أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء, والعلمُ يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية فالمالُ يدعوها إلى صفات الملوك, والعلمُ يدعوها إلى صفات العبيد

العاشر: ما أطاع الله أحد قط إلا بالعلم, وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

الحادي عشر: أن العلم حاجب موصل لها إلى سعادتها التي خُلقت لها والمال حجاب عنها وبينها.

الثاني عشر: أن المال يستعبدُ مُحِبَّه وصاحبه, فيجعلُه عبداً له, والعلم يستعبده لربه وخالقه.

الثالث عشر: أن قيمة الغني مالُه, وقيمة العالم علُمه, فهذا متقوم بماله, فإذا عُدِمَ عُدمت قيمتُه فبقي بلا قيمة, والعالمُ لا تزولُ قيمته بل هي في تضاعفٍ وزيادة دائمة

الرابع عشر: أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله, وجامعُ المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله.

الخامس عشر: أن اللذة الحاصلة من غنى المال إما لذة وهمية وإما لذة بهيمية, فإن صاحبه إن التذَّ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذة وهمية خيالية, وإن التذَّ بإنفاقه في شهواته فهي لذة بهيمية, وأما لذة العلم فلذة عقلية روحانية, وهي تشبه لذة الملائكة وبهجتها. وفرق بين اللذتين.

السادس عشر: أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن, فهو حزين قبل حصوله, خائف بعد حصوله, وكلما كان أكثر كان الخوف أقوى, وغنى العلم مقرون بالأمن والفرح والسرور.

السابع عشر: أن الغنى بالمال هو عين فقر النفس, والغنى بالعلم هو غناها الحقيقي, فغناها بعلمها هو الغنى, وغناها بمالها هو الفقر.

الثامن عشر: أن من قُدِّم وأُكرم لماله إذا زال ماله ذهب تقديمه وإكرامه, ومن قُدِّم وأُكرِم لعلمه فإنه لا يزداد إلا تقديماً وإكراماً.

التاسع عشر: أن غنى المال يبغضُ الموت ولقاء الله, فإنه لحبه ماله يكره مفارقته ويحب بقاءه,..وأما العلم فإنه يحبِّبُ للعبد لقاء ربه, ويزهده في هذه الدنيا...الفانية

العشرون: أن الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم, والعلماءُ يموتون ويحيا ذكرُهم.

يقبحُ بالإنسان أن يكون غافلاً عن العلوم النافعة والأعمال الصالحة:

لا شيء أقبحُ بالإنسان من أن يكون غافلاً عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة والأعمال الصالحة, فمن كان كذلك فهو من الهمج الرّعاع الذين يُكدرون الماء ويُغلون الأسعار, إن عاش عاش غير حميد, وإن مات مات غير فقيد, ففقدُهم راحة للبلاد والعباد, ولا تبكى عليهم السماء ولا تستوحش لهم الغبراء.

وصية نافعة في دفع الشبهات:

قال لي شيخ الإسلام رضي الله عنه – وقد جعلتُ أوردُ عليه إيراداً بعد إيراد –:"لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السِّفنجة فيتشربها, فلا ينضح إلا به, ولكن اجعله كالزجاجة المُصمته, تمرُّ الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها, فيراها بصفائه, ويدفعها بصلابته, وإلا فإذا أشربت قلبك كلَّ شبهةٍ تمرُّ عليك صار مقراً للشبهات" أو كما قال, فما أعلمُ أني انتفعت بوصيةٍ في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك.

قلة سالكي طريق الآخرة:

لما كانت طريق الآخرة وعرةً على أكثر الخلقِ, لمخالفتهم لشهواتهم ومباينتها لإراداتهم ومألوفاتهم قلَّ سالكوها, وزهدهم فيها قلّة علمهم – أو عدمه – بحقيقة الأمر وعاقبة العباد ومصيرهم وما هُيئوا وهُيِّئ لهم, فقلَّ علمهم بذلك, واستلانوا مركب الشهوة والهوى على مركب الإخلاص والتقوى,...وأخلدوا إلى الدعة والراحة, وآثروا العاجل على الآجل, وقالوا: عيشُنا اليوم نقد وموعدنا نسيئة.

مراتب العلم:

أولها: حُسنُ السؤال.الثانية: حُسنُ الإنصات والاستماع.الثالثة: حُسنُ الفهم.

الرابعة: الحفظ الخامسة:التعليم السادسة:وهي ثمرته وهي العمل به ومراعاة حدوده

القلوب التي لا تلين ولا تنيب ليس بمستكثر لله عز وجل أن يخلق لها ناراً تذيبها:

الجبال...أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشيته.

فيا عجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال ! تسمع آيات الله تتلى عليها, ويُذكرُ الرب تبارك وتعالى, فلا تلينُ ولا تخشع ولا تُنيب فليس بمُستنكر لله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها ناراً تُذيبها إذا لم تلِن لكلامه وذكر زواجره ومواعظه.

فمن لم يلِن لله في هذه الدنيا قلبه, ولم ينب إليه, ولم يُذبه بحبه والبكاء من خشيته, فليتمتع قليلاً فإن أمامه المُلين الأعظم, وسيُردُ إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم

خلة عجيبة جعلت للبهائم عند موتها:

تأمل خلة عجيبة جُعلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب على كثرتها, لا يرى منها شيء وليست شيئاً قليلاً فتخفى لقلتها, بل قد قيل: إنها أكثرُ من الناس.

واعتبر بما تراه في هذه الصحارى من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب والنمور..التي هي أضعاف أضعاف بني آدم, لا تكاد ترى منها شيئاً ميتاً...إلا ما عدا عليه عاد, إما افترسه سبع أو رماه صائد أو عدا عليه عادٍ أشغله وأشغل بني جنسه عن إحراز جسمه وإخفاء جيفته.

فدلَّ ذلك على أنها إذا أحسَّت بالموت, ولم تُغلب على أنفسها, كمنت حيثُ لا يوصل إلى أجسامها, وقبرت جيفها قبل نزول البين بها, ولولا ذلك لامتلأت الصحارى بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها, فعاد ضرر ذلك بالناس, وكان سبيلاً إلى وقوع البلاء.

-(١٩)

حكمة الله العزيز الحكيم في تسليط الناس بعضهم على بعض:

اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه, فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حقِّ ظالمه, كما أن المسؤول إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه, ولو صدق السائل لما أفلح من رده, وكذلك السارقُ وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها, ولو أدَّوا ما لله عليهم فيها لحفظهم الله عليهم.

وهذا أيضاً باب عظيم من حكمة الله, يُطلعُ الناظرَ فيه على أسرار من أسرار التقدير, وتسليط العالم بعضهم على بعض, وتمكين الجُناة والبُغاة.

فسبحان من له في كل شيءٍ حكمة بالغة وآية باهرة, حتى أن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيشُ في خفارة ما كسبت أيديهم, ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء.

ويحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص, فأرسل الله عليه سيلاً فذهب بالغنم, فجعل يعجب, فأُتي في منامه فقيل له: أتعجب من أخذ السيل غنمك ؟ إنه تلك القطرات التي شُبت بها اللبن, اجتمعت وصارت سيلا.

وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها, كما فعلوا بأموال الناس ومحقوها عليهم وأتلفوها بالربا, جُوزوا إتلافاً بإتلاف, فقلَّ أن ترى مُرابياً إلا وآخرته إلى محقٍ وقلَّةٍ وحاجة.

وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه, كيف يسلَّطُ عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواءً. وهذه سنته تعالى منذ قامت الدُّنيا إلى أن تطوى الأرض.

وتأمل الحكمة في حبس الله الغيث على عباده وابتلاهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين, كيف جُوزوا على منع ما للمساكين قِبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم, يقال لهم بلسان الحال: مَنعتم الحقَّ فمُنعتُم الغيث, فلاً استنزلتموه ببذل ما لله قِبلكم.

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم, بل كأن أعمالهم ظهرت في صُور وُلاتهم وملوكهم, فإن استقاموا استقامت ملوكهم, وإن عدلوا عدلوا عليهم, وإن جاروا جارت عليهم ملوكهم وولاتهم, وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك, وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم, وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملاتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه وضربوا عليهم المكوس والوظائف, وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة, فعمَّالهم ظهرت في صور أعمالهم. وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم.

ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبَرّها كانت ولاتهم كذلك, فلما شابوا شيبت لهم الولاة, فحكمة الله تأبى أن يولى علينا في هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبدالعزيز, فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر, بل ولاتنا على قدرنا وولاة من قبلنا على قدرهم, وكل من الأمرين مُوجب الحكمة ومقتضاها, ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر, ظاهرةً وباطنةً فيه, كما في الخلق والأمر سواء.فإياك أن تظنَّ بظنك الفاسد أن شيئاً من أقضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة, بل جميع أقضيته وأقداره تعالى واقعة على أتمّ وجوه الحكمة.

-(٢١)

ذوق حلاوة القرآن بتدبر قراءته:

وبالجملة, فلا شيء أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر, فإنه...يورثُ المحبةَ والشوقَ والخوفَ والإنابةَ والتوكلَ والرضا والتفويض والشكرَ والصبرَ وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكمالهُ, وكذلك يزجرُ عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لا شتغلوا بها عن كلِّ ما سواها,..فقراءة آيةٍ بتفكرٍ وتفهم خير من قراءة ختمةٍ بغير تدبرٍ وتفهمٍ, وأنفع للقلب, وأدعى إلى حصول الإيمان وذوقِ حلاوة القرآن.

فرح التائب بتوبته:

التوبة توجبُ للتائب آثاراً عجيبةً...منها: أنَّ الله سبحانه يحبُّه ويفرحُ بتوبته أعظم فرح, وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل, فلا ينسي الفرحة التي يظفرُ بها عند التوبة النصوح.

وتأمل كيف تجدُ القلب يرقص فرحاً وأنت لا تدري سبب ذلك الفرح ما هو, وهذا أمر لا يحسُّ به إلا حيُّ القلب, وأما ميتُ القلب فإنما الفرح عند ظفره بالذَّنب, ولا يعرف فرحاً غيره.

فوازن إذن بين هذين الفرحين, وانظر ما يُعقبه فرحُ الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب, فمن يشتري فرحة ساعة بغمِّ الأبد ؟ وانظر ما يُعقبُه فرحُ الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانشراح الدائم والنعيم وطِيب العيش, ووازن بين هذا وهذا, ثم اختر ما يليق بك ويناسبك.وكلّ يعملُ على شاكلته.

-(٢٢)

أهل الطاعة أهل النعمة المطلقة:

لو عرف أهل طاعة الله أنهم هم المُنعم عليهم في الحقيقة, وأن لله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم, وإن توسدوا التراب ومضغوا الحصى, فهم أهل النعمة المطلقة, وأن من خلى الله بينه وبين معاصيه فقد سقط من عينه وهان عليه, وأن ذلك ليس من كرامته على ربه, وإن وسع الله عليه في الدنيا ومدَّ له من أسبابها, فإنهم أهلُ الابتلاء على الحقيقة.

بعض فوائد الصوم:

الصوم ناهيك به من عبادة تكُفُّ النفس عن شهواتها, وتخرجها عن شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين,...وأي حسن يزيدُ على حسن هذه العبادة التي تكسرُ الشهوة, وتقمعُ النفس, وتحيي القلب وتفرحُه, وتزهدُ في الدنيا وشهواتها, وترغبُ فيما عند الله, وتذكرُ الأغنياء بشأن المساكين وأحوالهم...فتعطف قلوبهم عليهم, ويعلمون ما فيه من نعم الله فيزدادوا له شكراً...وبالجملة فعون الصوم على تقوى الله أمر مشهور, فما استعان أحد على تقوى الله وحفظ حدوده واجتناب محارمه بمثل الصوم.

من آثر الراحة فاتته الراحة:

أجمع عقلاء كلِّ أمةٍ على أن النعيم لا يدرك بالنعيم, وأن من آثر الراحة فاتته الراحة, وأن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة والملذة, فلا فرحة لمن لا همَّ له, ولا لذة لمن لا صبر له, ولا نعيم لمن لا شقاء له, ولا راحة لمن لا تعب له, بل إذا تعب العبدُ قليلاً استراح طويلاً, وإذا تحمل مشقة ساعةً قاده لحياة الأبد, وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو ثمرة صبر ساعة.

-(٢٣)

فوائد متفرقة:

* من لم يكن لديه شيء من أسباب البيان والتبصرة, فلا يعدَم من قد استفرغ وُسعه وبذل جهده منه التصويب أو المعذرة, ولا يرضى لنفسه بشرِّ الخطتين, وأبخس الحظَّين: جهل الحق وأسبابه, ومعاداة أهله وطُلابه.

* قوله تعالى: ﴿ وخُضتم كالذي خاضوا ﴾ هذا شأنُ النفوس الباطلة التي لم تُخلق للآخرة, لا تزالُ ساعيةً في نيل شهواتها, فإذا نالتها فإنما هي في خوض بالباطل الذي لا يُجدي عليها إلا الضرر العاجل والآجل.

* المخلصُ لله إخلاصه يمنعُ غلَّ قلبه, ويخرجهُ ويزيلُه جملةً, لأنه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه, فلم يبق فيه موضع للغل والغش.

* الرافضة أبعد الناس من الإخلاص, وأغشهم للأئمة والأمة, وأشدهم بعداً عن جماعة المسلمين.

* النفس مُولعة بحبِّ العاجلة وإيثارها على الآخرة, وهذا من لوازم كونه خُلِقَ من عَجَل وخُلِقَ عجولاً.

* سبحانه أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم, فقال تعالى: ﴿ فَتَعالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ وَلا تَعجَل بِالقُرآنِ مِن قَبلِ أَن يُقضى إِلَيكَ وَحيُهُ وَقُل رَبِّ زِدني عِلمًا ﴾ [طه:١١٤] وكفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر نبيه أن سأله المزيد منه.

* سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده – يدلهم على صحة ما أخبر به – أن أهل العلم هم المنتفعون بها, المختصون بعلمها, فقال تعالى: ﴿ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٣] وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً.
وكان بعض السلف إذا مرَّ بمثل لا يفهمه يبكى ويقول: لستُ من العالمين.

-(٢٤)

* لا بد لكل نعمةٍ من حاسد, ولكل حقٍّ من جاحد ومعاند.

* الحياء...سببه كمال حياة القلب, وتصوره حقيقة القبح ونفرته منه, وضدُّه الوقاحةُ والفحش, وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح.

* قلم بلا علم حركة عابث.

* سئل بعض العلماء عن عشق الصور, فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله, فابتلاها بعبودية غيره

فالقلب الغفل مأوى الشيطان...قد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوساوس والخيالات الباطلة.

* إذا كان القلبُ قاسياً حجرياً, لا يقبل تزكيةً ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه, كما لا تنبتُ الأرضُ الصلبة ولو أصابها كلُّ مطر, وبُذِرَ فيها كلُّ بذر.

* العلم طعام القلب وشرابه ودواؤه وحياته موقوفة على ذلك, فإذا فقد القلب العلم فهو ميت, ولكن لا يشعر بموته.

* التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك,..والخذلان أن يخلي بينك وبين نفسك.

* اللذة بالمحبوب تضعفُ وتقوى بحسب قوة الحبِّ وضعفه, فكلما كان الحبُّ أقوى كانت اللذة أعظم, ولهذا تعظُمُ لذَّةُ الظمآن بشرب الماء البارد بحسب شدة طلبه للماء, وكذلك الجائع, وكذلك من أحبَّ شيئاً كانت لذتُه على قدر حبِّه إياه.

* قيل : من عُرِضَ عليه حق فردَّه ولم يقبله عُوقِبَ بفساد قلبه وعقله ورأيه.

* الهمج من الناس: حمقاهُم وجهلتهم....هؤلاء من أضرِّ الخلق على الأديان, فإنهم الأكثرون عدداً الأقلون عند الله قدراً, وهم حطب كل فتنة, بهم توقدُ ويُشبُّ ضِرامها, فإنها يعتزلها أولو الدين, ويتولاها الهمجُ الرعاع.

ـ(٢٥)

* الرجل إما أن يكون بصيراً أو أعمى متمسكاً ببصيرٍ يقوده أو أعمى يسير بلا قائد

* كلما طالت المخالطة ازدادت أسبابُ الشرِّ والعداوة وقويت, وبهذا السبب كان الشرُّ الحاصلُ من الأقارب والعشراء أضعاف الشرِّ الحاصل من الأجانب والبُعداء.

* محبةُ العلم من علامات السعادة وبغضُ العلم من علامات الشقاوة, وهذا كله إنما هو في علم الرسل الذي جاؤوا به, وورثوه للأمَّة, لا في كلِّ ما يسمى علماً.

* لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه, والدنيا سجنُه حقاً, فلهذا تجدُ المؤمن بدنُه في الدنيا وروحه في المحلِّ الأعلى.

* نواب إبليس في الأرض هم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين

* المحب الصادق إن نطق نطق لله وبالله, وإن سكت سكت لله.

* العلم غنى بلا مال, وعز بلا عشيرة, وسلطان بلا رجال.

* من قواعد الشرع والحكم أيضاً أن من كثرت حسناته وعظُمت, وكان له في الإسلام تأثير ظاهر, فإنه يُحتملُ له ما لا يُحتملُ لغيره, ويُعفى عنه ما لا يُعفى عن غيره....وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم: أن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها....والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته فأيهما غلب كان التأثير له.

* لم يقسم في كتابه بشيءٍ من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر, وهو سبحانه يقسمُ بما يقسمُ به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه, وكلما كان أعظم آية, وأبلغ في الدلالة كان إقسامُه به أكثر من غيره.

* أحسن ما أنفقت فيه الأنفاسُ التفكُّر في آيات الله وعجائب صُنعه, والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمَّة به دون شيءٍ من مخلوقاته.

-(٢٦)

* قال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علماً, وبالاغترار به جهلاً.

* قال الحسن: العاملُ على غير علم يُفسدُ أكثر مما يُصلح, فاطلبوا العلم طلباً لا تُضروا بالعبادة, واطلبوا العبادة طلباً لا تُضرُّوا بالعلم, فإن قوماً طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم, ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا؟

* سئل ابن المبارك: من الناس ؟ قال: العلماء, قيل: فمن الملوك ؟ قال: الزهاد, قيل: فمن السفلة ؟ قال: الذي يأكلُ بدينه.

* قال السدي: كلُّ من عصى الله فهو جاهل.

* قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة: إصابة الحق والعمل به. وهي العلم النافع والعمل الصالح.

* كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: من فارق الدليل ضلَّ السبيل, ولا دليل إلا ما جاء به الرسول.

* قال سفيان الثوري: من أراد الدنيا والآخرة فعلية بطلب العلم.

* قال بشر: لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه.

* قال بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول.

* قيل: إذا استكمل العبدُ حقيقة اليقين صار البلاءُ عنده نعمه, والمحنةً منحة.

* قال بعض العلماء: الأكياس عاداتهم عبادات, والحمقى عباداتهم عادات.

* كان الحسن إذا رأى السحاب قال: في هذا – والله – رزقكم, ولكنكم تُحرمونه بخطاياكم وذنوبكم

-(٢٧)

* قال بعض السلف وقد زُلزلت الأرض: إن ربكم يستعتبكم.

* وقال عمر بن الخطاب, وقد زلزلت المدينة, فخطبهم ووعظهم, وقال: لئن عادت لا أساكنكم فيها.

* تأمل حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة, فإن الأطباء والطبائعين شهدوا منفعة ذلك وحكمته, وقالوا: في أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لأحدثت أحداثاً عظيمة, فالبكاءُ يسيلُ ذلك ويُحدرُه من أدمغتهم, فتقوى أدمغتهم وتصحُّ.وأيضاً فإن البكاء والعياط يوسّع عليه مجاري النفس, ويفتحُ العروق ويصلبها, ويقوّي الأعصاب.

* أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه, وأرغبهم فيه البُعداءُ عنه.

* حرم النبي صلى الله عليه وسلم كلَّ ذي نابٍ من السباع ومخلبٍ من الطير لضرره وعُدوانه وشرّه, والمُغتذي شبيه بالغاذي, فلو اغتدى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها وعدوانها وشرّها ما يشابهها به, فحرَّم على الأمة أكلها.

* لو رأى العبدُ ما في البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف التي لا يحصيها إلا الله ولا يعرفُ الناسُ منها إلا الشيء القليل الذي لا نسبة له أصلاً إلى ما غاب عنهم لرأى العجب ولعَلِمَ سعةَ مُلك الله وكثرة جنوده التي لا يعلمها إلا هو.

* كتاب الله هو الشفاء النافع, وهو أعظم الشفاء, وما أقل المُستشفين به! بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءةً ولا يزيد الظالمين إلا خساراً. وكذلك ذكرُ الله والإقبالُ عليه والإنابةُ إليه والفزعُ إلى الصلاة, كم قد شُفي به من عليل! وكم قد عُوفي به من مريض! وكم قام مقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريباً من مبلغه في الشفاء! وأنت ترى كثيراً من الناس –بل أكثرهم– لا نصيب لهم من الشفاء بذلك

* الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعاً, ومن خاصته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ويقومُ الإنسان عن رجيعه فيبادرُ إليه.

* من أعجب النعم.....نعمةُ النسيان, فإنه لولا النسيان لما سلا شيئاً, ولا انقصت له حسرة, ولا تعزى بمصيبة, ولا مات له الحزن, ولا بطل له حقد, ولا استمتع بشيءٍ من متاع الدنيا مع تذكر الآفات, ولا رجا غفلة من عدوه ولا فترةً من حاسده.

* الجزاء من جنس العمل, فمن عفا عفا الله عنه, ومن سامح أخاه في إساءته سامحه الله في إساءته, ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه, ومن استقصى استقصى الله عليه..فالله عز وجل يعاملُ العبد في ذنوبه بمثل ما يعاملُ به العبد الناس في ذنوبهم.

فمن أحبَّ أن يقابل الله إساءته بالإحسان فليقابل هو إساءة الناس إليه بالإحسان.

* تأمل هذا الخُلق الذي خُصَّ به الإنسانُ دون جميع الحيوان, وهو خُلق الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً, وأكثرها نفعاً, بل هو خاصية الإنسانية, فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة, كما أنه ليس معه من الخير شيء.

* إذا كان للذنوب عقوبات ولا بد, فكلُّ ما عُوقب به العبدُ من ذلك قبل الموت خير له مما بعده وأيسر وأسهلُ كثيراً.

*كمال الآدمي في هذه الدار بالتوبة النصوح, وفي الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة, وهذا الكمال مرتب على كماله الأول.

* خصَّ الذَّكر بأن جمَّل وجهه باللحية وتوابعها, وقاراً وهيبة وجمالاً, وفصلاً عن سنِّ الصِّبا, وفرقاً بينه وبين الإناث.

* من بُلي بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها, وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه.

* من بنى أمره على أن لا يعف عن ذنب, ولا يقدم خوفاً, ولا يدع لله شهوةً وهو فرح مسرور يضحك ظهراً لبطن إذا ظفر بالذنب, فهذا الذي يُخافُ عليه أن يحال بينه وبين التوبة, ولا يوفق لها.

* الله سبحانه إذا أراد بعبده خيراً أنساه رؤية طاعاته, ورفعها من قلبه ولسانه,...فعلامةُ السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره, وسيئاتهُ نصبَ عينيه, وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه, وسيئاته خلف ظهره.

* شهود العبد ذنوبه وخطاياه توجب له أن لا يرى لنفسه على أحدٍ فضلاً, ولا له على أحدٍ حقاً,...وإذا شهد ذلك من نفسه لم يرَ لها على الناس حقوقاً من الإكرام يتقاضاهم إياها ويذمُّهم على ترك القيام بها...فيرى أنَّ من سلَّم عليه أو لقيه بوجهٍ منبسط فقد أحسن إليه, وبذل له ما لا يستحقه, فاستراح هذا في نفسه, وأراح الناس من شِكايته وغضبه على الوجود وأهله, فما أطيب عيشه! وما أنعم باله! وما أقرَّ عينه!.

* الله تعالى لا يتكرم عليه أحد, وهو أكرمُ الأكرمين, فمن ترك لوجهه أمراً أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة, وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة.

* لله سبحانه من الحِكم في ابتلائه أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقولُ العالمين عن معرفته, وهل وصل من وصل إلى الغايات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء.

* جميع ما أمر به متضمن لحكمةٍ بالغة, وأمّا تفاصيلُ أسرار المأمورات والمنهيات فلا سبيل إلى علم البشر به, ولكن يُطلعُ الله من شاء من خلقه على ما شاء منه, فاعتصم بهذا الأصل.

* عامة بني آدم, لا يحتاجون إلى طبيب, وهم أصحُّ أبداناً وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب, ولعل أعمارهم متقاربة.

* طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس, وويل لمن نسِي عيبه وتفرَّغ لعيوب الناس. هذا من علامة الشقاوة, كما أن الأول من أمارات السعادة.

* لما كانت خاصة العقل النظر إلى العواقب والغايات, كان أعقلُ الناس أتركهم لما ترجحت مفسدته في العاقبة وإن كانت فيه لذة ما ومنفعة يسيرة بالنسبة إلى مضرته

* كثيراً ما يقرنُ تعالى بين هذين الاسمين (العزيز الحكيم) في آيات التشريع والتكوين والجزاء, ليدُلَّ عباده على أن مصدر ذلك كله عن حكمةٍ بالغة, وعزَّةٍ قاهرة.

* الله سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتةً يحرمُ أكلها, وأباح صيد الكلب المعلَّم.وهذا أيضاً من شرف العلم: أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالِم, وأما الكلب الجاهل فلا يحلُّ أكل صيده, فدلَّ على شرف العلم وفضله.

* الطيرة من الشرك وإلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته, يكبُر ويعظُم شأنها على من أتبعها نفسه, واشتغل بها, وأكثر العناية بها, وتذهبُ وتضمحلُّ عمَّن لم يلتفت إليها, ولا ألقى إليها بالاً, ولا شغل بها نفسه وفكره....والمتطيِّرُ مُتعبُ القلب, مُكمدُ الصدر, كاسف البال, سيئُ الخُلق, يتخيلُ من كل ما يراه أو يسمعه, أشدُّ الناس خوفاً, وأنكدهم عيشاً, وأضيقهم صدراً, وأحزنهم قلباً.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
من أقوى أسباب الشكر أن يرى العبد غيره في ضدِّ حاله من الكمال	٤
كتاب الله فيه الشفاء من كل داء, والهداية إلى كل خير	٤
القلب السليم	٤
نفي الخوف والحزن عن متَّبع الهدى	٥
الحياة الطيبة	٦
سبب استغفار الحيوانات للعالم	٦
تشبيه العلماء بالنجوم	٧
الحذر من رفيق ووزير السوء	٧
أفضل الأعمال بعد الفرائض طلبُ العلم	٧
الهداية أعظم نعمة لله على العبد	٨
الفقيه	٨
أنواع السعادات التي تؤثرها النفوس	٩
من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه	١١
حوار بين جماعة من النصارى	١١
من رحمة الله وبره بعباده كسرهم بأنواع المصائب لينالوا رضاءه ومحبته	١٢
العقل	١٢

أمراض القلب ودواؤها	١٣

مداخل الشيطان على الإنسان وما ينجيه منها	١٤
ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة	١٥
وجوه فضل العلم على المال	١٦
يقبحُ بالإنسان أن يكون غافلاً عن العلوم النافعة والأعمال الصالحة	١٨
وصية نافعة في دفع الشبهات	١٨
قلة سالكي طريق الآخرة	١٨
مراتب العلم	١٨
القلوب التي لا تلين ولا تنيب ليس بمستكثر لله عز وجل أن يخلق لها ناراً تذيبها	١٩
خلة عجيبة جعلت للبهائم عند موتها	١٩
حكمة الله العزيز الحكيم في تسليط الناس بعضهم على بعض	٢٠
ذوق حلاوة القرآن	٢١
فرح التائب بتوبته	٢١
أهل الطاعة أهل النعمة المطلقة	٢٣
بعض فوائد الصوم	٢٣
من آثر الراحة فاتته الراحة	٢٣
فوائد متفرقة	٢٤
الفهرس	٣٢